لمحات من الجانب الإنساني في شخصية سميحة خليل

مجلة التراث والمجتمع العدد 43 - زاوية أعلام فلسطين - ساجي خليل - 2006/12/20م - 11:00 ص

الصورة التي أطلت بها سميحه خليل على المشهد الفلسطيني، خصوصاً في مرحلة ما بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزه عام 1967، هي صورة الناشطة السياسية والاجتماعية التي لعبت دوراً رائداً في المسيرة النضالية للشعب الفلسطيني (1)، حيث شاركت بفعالية في قيادة الجبهة الوطنية الفلسطينية ولجنة التوجيه الوطني، ودافعت بكل قوتها عن برنامج منظمة التحرير الفلسطينية ورفعت عالياً رايتها، ودعت إلى مناهضة الاحتلال وتكريس الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني وتحقيق حريته واستقلاله، ما أدى إلى اعتقالها على يد قوات الاحتلال مرت عديدة، وفرض الإقامة الجبرية عليها وحرمانها من السفر لرؤية أبنائها لمدد طويلة.

قبل ذلك كانت سميحة خليل قد بدأت نشاطاتها الفعلية على الصعيد الاجتماعي والوطني منذ أواسط الخمسينات، وفي بداية الستينات ساهمت في تأسيس الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، ونشطت في إقامة منظمة التحرير الفلسطينية، وشاركت ضمن وفد اتحاد المرأة في أول مجلس وطني فلسطيني عقدته منظمة التحرير الفلسطينية في مدينة القدس عام 1964.

لعبت سميحة خليل دوراً بارزاً في قيادة الحركة النسائية والاجتماعية الفلسطينية من خلال رئاستها للاتحاد العام للمرأه الفلسطينية في الأراضي المحتلة، ورئاستها لجمعية إنعاش الأسرة، وكذلك من خلال دورها في قيادة الاتحاد العام للجمعيات الخيرية. وكان لجمعية إنعاش الأسرة مكانة خاصة في قلبها، وكانت تعتبرها بمثابة أسرتها الحميمة، وجمعتها مع عضواتها وموظفاتها وطالباتها أقوى أواصر المحبة والترابط . ومن خلالها أعطت سميحة خليل جلّ طاقتها لخدمة القضية الوطنية ولخدمة المرأة الفلسطينية والأسر الفقيرة وأهالي الشهداء والمعتقلين. ولعل أبرز محطة في مسيرتها الوطنية والسياسية وأكثرها إثارة هي انخراطها عام 1996 في المعركة الانتخابية وخوضها المنافسة على رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الرئيس ياسر عرفات رحمه الله، وحصولها على 12% من الأصوات؛ مكرسة بذلك تقليداً جديداً وعظيم الدلالة في الساحة الفلسطينية والعربية ، ألا وهو قدرة

المواطن وحقه في المنافسة على أرفع المناصب السياسية ، والأهم قدرة المرأة على خوض المنافسة الانتخابية مثلها مثل الرجل. فأي فخر تركته هذه المواطنة الشجاعة لشعبنا ولتراثه الحضاري والاجتماعي، وأي مثال قدمته هذه الإنسانة الحرة في إرادتها للمرأة الفلسطينية وللمرأة العربية عموماً. ولكن السمات القيادية المؤثرة التي امتلكتها سميحة خليل كشخصية وطنية واجتماعية عامة وذات نفوذ واسع ، لم تطمس أو تبدد السمات الإنسانية العميقة والحساسة في شخصيتها كامرأة وزوجة وأم وإنسانة بسيطة. كانت سميحة خليل ذات شخصية شديدة التنوع. عاشت حياة حافلة بالمعاناة والكفاح، ومليئة بالمواقف والحكايات والانفعالات، وتتناوب فيها الآمال مع الإحباطات. وبدون صعوبة يمكنك أن تجد في سلوكها ومواقفها امرأة ذات عاطفة قوية تجاه أسرتها وأصدقائها. امرأة ذات انتماء وطني عميق، لا تعرف الحياد إزاء القضايا، سواء الصغيرة منها أو الكبيرة. تتكلم بوضوح ولا تخفي وجهة نظرها. تستمع للآخرين وتتفاعل مع قضاياهم، تفرح لأفراحهم وتحزن لمآسيهم، وتهب دون تردد لمساعدتهم أو التخفيف عنهم. إنك على الأغلب لن تجد إنساناً واحداً إلتقته سميحة خليل ولم تترك لديه تأثيراً إيجابياً، أم لم يكن له معها حكاية يرويها حول موقف لها أو مساعدة أو نصيحة قدمتها له.

كانت امرأة ذات انفعالات طبيعية وصادقة إزاء الحياة ومستجداتها: تضحك من كل قلبها لنادرة سمعتها، وتعبر عن غضبها بشكل مكشوف إزاء أدنى تقصير أو إهمال. تتحدث عموماً بهدوء، ولكن إذا لزم الأمر ترفع صوتها على نحو متفجر لتضع حداً لمناقشة باتت بلا معنى أو لتوضيح لك أنها تعني ما تقول.

كانت لها فلسفة بسيطة وواضحة تجاه الحياة، بالإمكان التعرف بسهولة على أبرز ملامحها من خلال تأمل مواقفها وممارساتها اليومية. وآمل أن أتمكن من خلال هذه المقالة القصيرة من إلقاء بعض الضوء عليها.

عاشت سميحة خليل حياتها كربة أسرة متوسطة الحال وصغيرة العدد نسبياً، مكونة من أربعة أبناء وابنة واحدة، بالإضافة لها ولزوجها. وعمل والدي سلامة خليل طوال حياته العملية في سلك التعليم، مدرساً ثم مديراً لمدرسة، وبعدها مديراً للتعليم في وكالة الغوث، فعاشت الأسرة على راتبه حياة متقشفة. ولا أدري من علم والدتي كيفية وضع ميزانية للبيت، ربما علمتها الحاجة والضرورة، أو ربما تعلمت ذلك من المدرسة. كانت أمي امرأة مدبّرة، بل وشديدة التدبير، وفي بداية كل شهر كانت تضع ميزانية للبيت تقسم فيها راتب والدي على بنود تغطي احتياجات الأسرة الأساسية من تموين، وملابس، وسجائر الوالد، والكاز، وسداد دين الشهر السابق .. الخ. وما لا تغطيه موازنة شهر ما تؤجله لموازنة الشهر الذي يليه.

كانت والدتي بارعة في رتق الجوارب. وأتذكر البيضة الخشبية التي كانت تستعملها في تقطيب الملابس. ولم تكن والدتي تعرف الخياطة، لذلك كانت تضطر للدفع مقابل تصغير ملابس والدنا كي تناسبنا نحن الأبناء.

كانت والدتي تقوم بمعظم أعمال المنزل وأعمال الطبخ والتدريس والتسميع لأطفالها، وكانت تقسم بيننا نحن الأبناء العديد من الأعباء المنزلية. فكل واحد منا كان عليه واجب بما في ذلك غسل الأواني والكناسة. وكانت شديدة الإنصاف في التعامل معنا ولا تفضل واحداً منا على الآخر.

كانت إنسانة منظمة، تحب الترتيب وتكره الفوضى وقلة النظام. وقد اعتادت أن تضع لنفسها برنامجاً يومياً تحدد فيه سلفاً مواعيدها والأشغال التي عليها أن تقوم بها في اليوم التالي. وكنت تراها كل مساء تفتح دفترها ذو الغلاف السميك تتفحص فيه ما الذي أنجزته في ذلك اليوم، وما الذي عليها أن تنجزه في اليوم التالي.

كان باص الجمعية يأتي ليأخذها من بيتها إلى مقر عملها في الجمعية في ساعة مبكرة من صباح كل يوم، بانتظام يشبه انتظام الساعة. ويعيدها في ساعة متأخرة بعد الظهر. وفي ساعات المساء كان برنامجها عادة حافلاً باللقاءات والاجتماعات والفعاليات المتنوعة. كانت تكره الانعزال، ولم تكن تطيق الوحدة، وكان الاحتكاك بالناس والتواصل معهم يعطيها إحساساً بالوجود وشعوراً بالقوة وبالاندماج في الحياة. كانت تؤمن أن تحشيد طاقات الناس هو السبيل لتحقيق الأهداف الكبيرة وصنع الإنجازات العظيمة. وفي مواجهة المشكلات كان لها أسلوب مميز. فهي لم تكن تسمح لنفسها بالاستسلام أو الانهيار أمام أية مشكلة مهما بلغت حدتها. فبعد الصدمة الأولى، سرعان ما كانت تهب لمعالجة المشكلة والبحث عن حلول لها.

كانت تقول من الخطأ الإغراق في توصيف المشكلة والتلهي بالحديث عنها أو الدوران من حولها، فالمهم هو التفكير في كيفية الخروج منها أو تقليل الأضرار الناجمة عنها. كانت تدرك بكل واقعية أن المشكلات ستواصل الحدوث، وأن على المرء أن يعود نفسه على عدم الانسحاب أو الهرب من مواجهة المشكلات.

وفيما يتعلق بموقفها من المرأة، كانت والدتي تؤمن على نحو عميق بالمساواة بين المرأة والرجل. وتعتقد أن المرأة تستطيع ، إن هي امتلكت الإرادة، أن تحقق انجازات هائلة، وأنها ليست بأقل قدرة من الرجل.

كانت تؤمن بأهمية الأسرة وبتكامل دور المرأة ودور الرجل داخلها، ولكنها اعتقدت أن الأب داخل الأسرة له دور القائد. كان والدي يقدم كل الدعم الذي تحتاجه لاستمرارها في نشاطاتها، وكثيراً ما كانت تستشيره في خطواتها وبرامجها، وكان يساعدها بتقديم الاقتراحات وأحياناً بتدقيق خطاباتها. ولم أشعر يوماً أن والدتي تحدت أو تنكرت لدور والدي كرأس لأسرتنا. ورغم أنه كان شخصية تربوية مرموقة، إلا أنها فاقته عموماً في الحضور الاجتماعي والمكانة السياسية. وفي كل الأحوال كانت والدتي تعلي من مكانة المرأة، وتؤكد على قدراتها وأهليتها. لقد آمنت بتعليم المرأة، واهتمت بتعليم الفتيات بشكل خاص. ولذلك فقد حظيت مهمة تعليم وتنشئة بنات الشهداء في جمعية إنعاش الأسرة برعاية خاصة من قبلها. وبلغ شغفها بالتعليم درجة كبيرة، إلى الحد الذي دفعها إلى مواصلة دراستها والالتحاق بالجامعة عندما تجاوزت سن الأربعين، وفي وقت كنا فيه نحن الأبناء في سن الشباب ندرس في الجامعة أو في الثانوية.

آمنت والدتي بأن الأسرة هي اللبنة الأساسية للمجتمع، وكانت تشدد على ضرورة إبداء الاحترام في العلاقات داخل الأسرة . كما كانت تؤكد باستمرار على قيمة احترام الذات ورفض الإهانة، وعلى استقلالية الرأي .

كانت والدتي تؤمن أن من أهم صفات الرجل هي الإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن وتجاه الأسرة، وكانت تكره الرجل الكسول غير المنتج. وتحترم الإنسان الوطني الذي يضحي في سبيل شعبة ووطنه. ولذلك كان للأسرى مكانة خاصة في قلبها. وحيث أنها

خاضت بنفسها تجربة السجن وذاقت معاناة السجناء، عندما اعتقلت مرات عديدة خلال مسيرتها النضالية، فقد كانت تتحسس على نحو عميق معاناة ومشاعر المعتقلين وأهاليهم. وكانت تتلقى من السجناء مئات الرسائل المفعمة بالعواطف الصادقة، وجمعتها مع السجناء والمحررين وأهاليهم أمتن العلاقات والروابط.

وفي موضوع الصداقة كانت تعتبر الوفاء هو دليل حقيقي للصداقة. لقد فوجئت بعد وفاتها عندما فتحت رزمة الأوراق التي كانت تحتفظ بها في الكومودينو المجاور لسريرها، بذلك الكم الكبير من المراسلات الشخصية التي حافظت عليها كل تلك السنين: رسائل يزيد عمر بعضها على أربعين أو حتى خمسين سنة، من صديقات لها من غزة والمجدل وطولكرم ونابلس ورام الله، وكلها تضج بالعواطف الصادقة والأحاديث التلقائية والأشواق، والكثير من الذكريات والنوادر المضحكة.

كان أحد معايير الصداقة لديها هو الموقف الوطني. وعموماً لم تكن تستطيع قبول صداقة شخص له موقف ملتبس تجاه القضية الوطنية أو يدعو لموقف انهزامي. كانت مؤيدة أشد التأييد لسياسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لمواقفه ودوره القومي وسعيه لتوحيد الأمة العربية. وكانت معجبة أيما إعجاب بشخصيته القيادية. وكان الموقف من جمال عبد الناصر هو معيار أساسي بالنسبة لها لقياس جدارة هذا الشخص أو ذلك بصداقتها. ولم تكن تسمح بأي انتقاد يوجه له أو لسياسته، ربما باستثناء حالة أو حالتين. مثلاً المرحوم يونس السوقي الذي كان من أصدقاء والدي، كان لا يخفي أمامها انتقاده لسياسة جمال عبد الناصر، وكانت تخوض معه جدالات قاسية، ولكنها احترمته دائماً، ربما لأنه كان صريحاً يقول ما يعتقده بدون مواربة. وكذلك الحال مع شقيقها خالي شريف القبج رحمه الله الذي كان مدرساً ذو مكانة اجتماعية مرموقة. كانت والدتي تكن له تقديراً خاصاً وتعتبره من أذكى الأشخاص وبأنه يمتلك عقلاً عبقرياً. وكان لا يحب جمال عبد الناصر. وعندما كان يحضر لزيارتنا سرعان ما كانت تتحول الزيارة العائلية إلى مناقشات سياسية لا تخلو من الحدة، ولكن ذلك في النهاية لم يفسد للود بينهما قضية.

كانت والدتي تنظر بتقدير واحترام للرجل الجريء والصادق، ولم تكن تستحسن في الرجل صفة التردد أو الخجل. فمثلاً كانت تقول عن أحد أصدقاء والدي "إنه إنسان ممتاز، مثقف ومهذب له كل الاحترام، ولكني لا أحب فيه أنه يحمّر خجلاً عندما يتكلم." وأما بالنسبة للدين، فقد كانت والدتي تمتلك عاطفة دينية قوية تعزز إيمانها بالله. كانت حريصة على أداء كافة الفروض الدينية. كانت تصلي بخشوع شديد وتقرأ القرآن، وواظبت على صوم رمضان. على أنها لم تكن تطبق الحجاب أبداً، لا على رأسها ولا على وجهها. كانت تشعر أن الحجاب يضايقها، وببساطة لم تكن مقتنعة بضرورته. على أنها كانت تؤمن بحرية المرأة وبحقها إذا شاءت بارتداء الحجاب أو ما تراه متناسباً مع قناعاتها أو ذوقها دون مساس بالمشاعر العامة للناس.

كانت تمتلك رؤية متسامحة ومنفتحة للدين. وكانت تعتقد أن الدين ضروري للحياة والمجتمع. وكانت إذا ألمت بها ضائقة أو أصابها قلق تقرأ القرآن، وتحديداً آية الكرسي، وتصلي ركعات إضافية وتدعو الله بصوت مسموع. كانت تؤمن أن الدين لله والوطن للجميع، ولم تسأل يوماً أحداً ما هو دينك، فما كان يهمها هو موقف الإنسان من قضايا وطنه ومجتمعه وسلوكه العملي. كانت تكره التعصب والتطرف وكل أشكال المغالاة، أو التظاهر في التعبير عن الإيمان، كانت لا تحب إطلاق الشباب للحي أو حمل المسابح. ولم تتردد في التصدي للدعوات المتخلفة التي تتستر بالدين لقمع المرأة أو لمعاداة أصحاب الديانات الأخرى أو لتكفير الآخرين. كانت لها رؤية عملية وغير معقدة في جوهر الدين. وكانت دائماً متصالحة مع الله ومع نفسها. ولم تكن تحب

الجدال في أمور الدين، فما يهمها هو القيم النبيلة التي تبشر بها الأديان. في إحدى جولاتها الانتخابية في مدينة الخليل وأمام حشد من الأهالي وبينما هي تشرح برنامجها الانتخابي وسياستها قاطعها شخص من الجمهور قائلاً: إن ما تقولينه صحيح ومقبول، ولكن ملاحظتي عليك هي أنك تجلسين في مجتمع من الرجال وأنت سافرة الرأس، وكونك مسلمة فهذا مخالف للدين. فأجابته على الفور: هذه وجهة نظرك وأنا أحترمها، وإذا كان يريحك أن أضع غطاء على رأسي فلا مانع لدي، وأخذت من أقرب امرأة عليها شالاً ووضعته على رأسها وأكملت حديثها وكان شيئاً لم يكن.

ما ذكرته أعلاه هو لمحات مختصرة من شخصية إنسانة فلسطينية مكافحة عاشت حياة بسيطة ولكنها حافلة بالعطاء والريادة وغنية بالتجارب والتضحيات والتحديات، رسمت من خلالها نموذجاً فذاً للمرأة الفلسطينية الباسلة.

بعد أكثر من عشرين عاماً من الإبعاد عاد المناضل عبد الجواد صالح رئيس بلدية البيرة السابق إلى مدينته البيرة وزار صديقته في النضال سميحة خليل، قال لي: ذهلت عندما وجدت بعد عشرين سنة من الغياب نفس الأثاث البسيط ونفس السجادة ونفس الترابيزات، وأم خليل تعيش ذات الحياة البسيطة وتتحدث بذات الروح العالية عن حرية الوطن واستقلاله.

على قبرها في مقبرة البيرة جملة صغيرة مكتوبة بخط جميل:
سميحة خليل: توفيت في 26 شباط 1999 (ناضلت من أجل حرية واستقلال الشعب الفلسطيني).

هاتف: 02-2402876 / 02-2401123 Tel: 02-2401123 / 02-2402876
فاكس: 02-2401544 Fax: 02-2401544
صنـدوق بريـد: 3549 P.O.Box: 3549